"إبراهيم الأسمر"، من حيثُ الرواية التاريخية وإعادة بناء التاريخ

راشد مصطفى بخيت

يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي فحسب، بينما يسائل الثاني الحاضر والماضي معاً. ومن هنا نشأت العديد من الاختلافات المنهجية في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة في القرن العشرين. ونظرية الأنواع الأدبية تلك، ليست هي نظرية الأدب أو النظرية الأدبية، لأنها تبحث في توزع الأنواع داخل الجنس الواحد، مثل أنواع الرواية من تاريخية وكلاسيكية وواقعية وخلافها من أنواع أخري، بينما تبحث نظرية الأدب في الاتجاهات النقدية المشكلة لقوام هذه النظرية، من مثل الاتجاهات الماركسية بكامل تفرعاتها والاتجاهات البنيوية وما بعدها والاتجاه التفكيكي والتأويل والنقد النسوي، ومباحث الألسن واللغويات المختلفة وخلافها من اتجاهات أخرى. والنوع حسب نظرية الأجناس الأدبية هذه، هو ما يربط نصاً ما بخطاب أوسع منه، بمعني إن الرواية التاريخية علي سبيل المثال، يتم تمييزها كنوع أدبي بواسطة انفتاح سردها علي خطاب التاريخ ومجرياته البعيدة، حيث تنهض على مبدأ "المطابقة" بين الرواية والواقع، وفي هذه المطابقة إيهام بـ"تاريخية" الرواية التي تقدم "الواقع" كما جرى فعلاً، بينما تتميز الرواية الواقعية بأنها قريبة العهد من موضوع معالجتها، وتستند إلى مبدأ "المشابهة" بين الرواية والواقع، وفي هذه المشابهة إيهام بـ "واقعية" الرواية التي تقدم ليس الواقع فحسب، ولكن "المحتمل" منه أيضاً. فالتاريخ ببساطة هو رواية ما وقع، والرواية هي تاريخ ما وقع، وما كان يمكن أن يقع، وما سيقع لاحقاً.

وكل هذه التداخلات في نظرية الأنواع الأدبية، هي تداخلات لم يجر أمر البت فيها بشكل حاسم ونهائي نسبة لانشغال الدارسين بنظرية الأدب أكثر من اهتمامهم بنظرية الأنواع نفسها. ذلك لأن القرن العشرين، وفي سياق تطور نظريات النقد المختلفة، أنتج

مفاهيم الارتهان إلي النص وتحليله تحليلاً شاملاً بناء علي أحد عناصره، دون التساؤل عن نوعه الأدبي وما إذا كان مستوفياً لشروط هذا النوع أم لا! وذلك رسن فيما نظن، طوقت به اتجاهات ما بعد الحداثة القائمة علي مبدأ هدم الأنماط، نظرية الأنواع وصرفت المشتغلين علي أمرها إلي ما بعد النوع، رغماً عن أهمية مثل هذا التجنيس في سياق الدراسة النقدية لشتي صنوف الأدب، وخصوصاً الرواية. فهنالك الكثير من الإنتسابات الغير مستوفية لشروط الإلحاق النوعي هذا، ومع ذلك فهي تتسمي به رغماً عن أنف النوع ونظريته!

"مشروع إبراهيم الأسمر الروائي"، الرواية الحائزة علي جائزة الطيب صالح للإبداع الروائي للعام 2007، رواية تقع في المنتصف تماماً بين هذين الجنسين، رغماً عن نزوعها الجامح نحو صيغ التأريخية في بنائها العام وشروط إمكانها، من حيث تناولها لمجريات أحداث الثورة المهدية في السودان، بكافة رموزها الفكرية والعسكرية وما خلفته من تحولات على مستوي البني الاجتماعية لحياة البشر والقبائل المختلفة. ويعود هذا التوسط في تجنيسها بين الواقع والتاريخ إلي بحثها عن صيغة مختلفة لإعادة كتابة التاريخ وخصوصاً الاجتماعي منه، ورفضها الإذعان لمبدأ "المطابقة" المتجسد على مستوى التاريخ السياسي للثورة المهدية الذي يغفل الكثير من مخلفات الثورة وأثارها السيئة علي حيوات الكثير من القبائل السودانية مما تختزنه الذواكر الجمعية للتراث الشعبي الشفاهي لهذه المجموعات. فالآن "يطل عهد جديد من الاحتراب والنزوح والويلات. حروب من نوع جديد. ليست حروباً قبلية مثل حروب أبو حوة الأسمر، وليست حروباً تجارية مثل حروب الزبير باشا، إنها حروب من نوع ثالث، سوف تكون الحروب القبلية والتجارية بإزائها لعب أطفال. إنها حروب الدين والدولة! من يشارك فيها هالك، ومن لم يشارك هالك". هكذا تجنح الرواية في تبيان مثل هذه الأمور، تتحرك وفق قواعد البناء التاريخي من حيث استعادتها لأحداث تشملها صفة "المطابقة" التاريخية، لكنها في ذات الوقت، تستهدف بنيةً مضمرة، محاولةً إعادة بناء معطيات ذلك التاريخ واستخلاص العبرة المرجوة منه، في اتجاه الإفصاح عن مكنون الذاكرة الشعبية

في الكثير من ما صاحب مسيرة "الثورة" المهدية. فلسان الراوي في مشروع إبراهيم الأسمر الروائي، كثيراً ما ينطق بما تحمله دخائل النفس البشرية لإنسان عادي، اضطرته ظروف الحرب، التي ليس له عليها حول ولا قوة، إلى فعل ما لا يرغب به. "آمنت بالسلام والاستقرار، والناس لا يؤمنون إلا بالحرب، الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعاركوا. الحرب هي الأصل. لقد انتهت حروب المهدي في الخرطوم، لتبدأ حروب الخليفة من أمدرمان. انتهت حروب المهدي، وحروب الخليفة لا نهاية لها. كسر شوكة كل القبائل الكبيرة وأخضعها. كسر شوكة الأشراف أقرباء المهدي! هجر القبائل ذات الشأن عنوةً إلي أمدرمان. الآن يبدأ حرباً مع الأحباش. الحرب لا تلد السلام. الحرب لا تلد إلا الحروب. هل تلد الذئبة غزالاً؟".

وإلي جانب محاولة إعادة البناء التي تستهدفها الرواية من خلال الإشارة إلي بواطن الشذوذ في ما انطوت عليه مسيرة التأريخ السياسي لهذه الثورة، يتناول الكاتب، بعض وقائع المعطيات التاريخية وأسماء الشخوص الذين تسببوا في إشعال حرف مسار الثورة عن مبتغاه، بحيث عملوا على بناء معادلات التوازن السياسي، ليس بحساب الضرر الذي ستخلفه علي حياة البشر، إنما فقط، بما ستجنيه هذه الموازنات من انتصارات ساحقة، كانت نتيجتها في الكثير من الأحيان، أن تنتهك حرمات من هم ليسوا بأعداء الثورة، بل منتسبيها. ف"هؤلاء هم جهادية أبو حمدان أبو عنجة. بعضهم خدم الزبير وخدم الترك ثم المهدية. هؤلاء هم علوج الحروب. إذا لم يكونوا مشغولين بحرب، شغلوا أنفسهم بنهب وتعذيب الخلق. أبو عنجة هو الذي أقنع الخليفة بضرورة الاستفادة من خبراتهم في القتال بالسلاح الناري رغم تحفظات المهدي". "وفي حياة المهدي كانوا تحت إمرة أبو عنجة فقط. بعد فتح الخرطوم وموت المهدي وتزايد عددهم، فرقهم المهدي علي كل الرايات. صار لكل راية جهاديتها. وجهادية الراية التي لا تكون مشغولة في حربٍ ما، ينتشرون في البوادي ينهبون خلق الله، يشربون الخمور، ولا يتورعون عن منكرٍ أو جريمة"، ويغتصبون الجميلات من نساء القبيلة، رغماً عن أنهم لربما أستطاعوا أخذ ما يريدون، دونما حاجة للقوة! هكذا تحدثت فذارية، مبينةً ذلك

الجانب الآخر الذي خلفته الحروب علي مختلف قبائل المنطقة، فأصبحت بلا رجال! لكنهم لا يعرفون سوي العنف لغةً لكل شيء.

إن التركيز علي إبراز الجوانب السلبية لحروب الخليفة ودولته في بناء الرواية، يجئ هو الآخر ضمن محاولتها الحثيثة لتقفي مسار الخطأ في ثورة اجتماعية أُفرغت من محتواها بما تضمنته من خروج سافر علي مبادئها وما تهدف إليه، بالإضافة إلي سحقها للمجموعات الاجتماعية التي تكسبها شرعيتها التاريخية، ومن ثم سحقها لقادتها أيضاً، فمريم منقذة أبو حوة، يصورها لنا لسان الراوي بلا مبالاة تجاه هذه الثورة نتيجة ما ألمته به من فواجع عديدة، فهي حسب لسان الراوي "تسأل وكأن الأمر لا يعنيها. كأنما ليس هنالك فرقٌ بين الدولة التي سقطت والدولة التي تنهض!". هل يمكن إرجاع هذه الحالة من اللامبالاة، إلي صنوف البطش والتنكيل التي وفرتها الثورة الوليدة لمنتسبيها في تلك الفترات؟ بالطبع نعم. فما من ثورة تنهض لسحق أبنائها، إلا وكان منتسبوها هم أول الخارجون عن أسوارها العتيقة. وبذات القدر ما من قهر اجتماعي سلطوي، إلا وتكون نتيجته الوحيدة هي عدم الإحساس بالانتماء إليه ولعنه مع كل بزوغ صبحٍ جديد. هل هذه الرواية تتحرك بنا من حصون التاريخ العتيدة، لتضعنا أمام راهن اجتماعي نعيشه يومياً آلاف المرات؟ وهل مبدأ المقابلة المفترضة بين الماضي والحاضر في هذه الرواية، يؤكد علي أن مسيرتنا التاريخية كأمة، تسير في دائرة واحدة لم تبارحها إلي الآن؟ بالطبع يمكن الإجابة علي هذه الأسئلة بسهولة من داخل بناء الرواية، من خلال صورة القمع التي وضعها المؤلف في شكل تقابلي بين ما هو سياسي عسكري، وبين ما هو اجتماعي إنساني. بحيث تستحيل الإجابة علي هذا السؤال هي سؤال آخر أسهل بقليل مفاده: وهل للسياسة مشروعية من دون المجتمع؟!

نظرة أخرى لإجابة "مريم"، ربما تضفي القليل من المعقولية علي الإجابات المفترضة، فحكاية مريم هي "حكاية معظم الخلق الذين تقطعت بهم الأسباب هنا. جلبنا جند الخليفة قسراً إلي أمدرمان. أبي شيخ القبيلة الأبي جلدوه حتى الموت. سبوا إبلنا وجلبونا قسراً إلي هذه البلدة الجائعة الكئيبة لنتسول طعامنا، أظنك تعرف أمر المجاعة التي تعاظمت

وقضت علي الناس هنا. ولكن من أين لك أن تعرف! أنتم جهادية الخليفة لا تعرفون الجوع. كانت مجاعة لم ينج منها سوي طوال الأعمار مثلي من الأشقياء، وجند الخليفة مثلك من الأقوياء، الآن يأتينا آخرون. جاءوا بالنيران والحرائق مثلما جاءنا من كان قبلهم بالنيران والحرائق. هاهم الجنود من بريطانيين ومصريين وسودان، يجوسون خلال الديار الكئيبة بحثاً عن جند الخليفة وبحثاً عن كل ما يمكن أن ينهب أو يؤكل أو يغتصب ".

صورةٌ أخري من صور تناول الظاهر الحاضرة من خلال مسببات تاريخية ترجع لأزمان بعيدة. فهل يستوي البريطانيون والمصريون والسودان، من الجند إلي علي عقل خبر سماتهم المشتركة في زراعة الخوف والقتل والاغتصاب؟ هذه هي الشفرة المشتركة إذن، فدولة الخليفة وفق هذه الصورة الاعتيادية، لم تكن بالنسبة لمواطنيها سوي محاولة أخري لجنود غزاة لا يتورعون في فعل أي شيء! وحتى الزاكي طمل أشهر قوادها يظل حبيس الساير، سجن الخليفة الرهيب الذي لا يخرج منه أحد حياً؟!

نخلص من كل ما تقدم إلي أن رواية مشروع إبراهيم الأسمر الروائي، هي رواية تاريخية من حيث تعاملها مع الحدث وفق مفهوم المطابقة سابق الذكر، لكنها في الذات الوقت تتمرد علي صيغة التأرخة من حيث محاولتها إعادة بناء ما تم إهماله من جوانب الثورة المهدية، أملاً في تاريخ آخر يخرج بنا من دوائر الحلقة الشريرة التي يرزح تحت وطأتها مجمل تاريخنا الحديث.